السياسة التعليمية في الجزائر في العهد العثماني قراءة سوسيو تاريخية

The educational policy in Alegria in the Ottoman period Read historical Sociology

زهية دباب[1] ، وردة برويس[2]

[1] جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، الإيميلzahia.debbab@univ-biskra.dz

[2] جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر)، الإيميل o.berrouis@univ-skikda.dz

تاريخ الاستلام: 2020/10/25 تاريخ القبول: 2021/03/08 تاريخ النشر: 2021/06/08

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية الى الوقوف على السياسة التعليمية في الجزائر، في الحقبة العثمانية التي دامت أكثر من ثلاثة قرون، أين أقام الأتراك خلالها الكثير من التنظيمات العسكرية، السياسية والاقتصادية والتي كان لها عائد وفير،أما الاهتمام بالجانب الثقافي والتعليمي فقد كان محدودا مقارنة بالجوانب الأخرى . فالتعليم كان في مجمله أوليا مستندا إلى تعليم الجزائريين مبادئ القراءة والكتابة وقراءة القران بعض التعاليم الدينية، أما المناهج الدراسية فلم تكن مسطرة لغايات محددة أو أهداف معينة، و لم تكن للتعليم سياسة واضحة.

كلمات المفتاحية : السياسة التعليمية، التعليم، العهد العثماني

Abstract:

This paper aines at understanding th educational policy in Algeria in the Ottoman period , Wich lasted for more than three centuries , where the site was established by a lot of military and political and financial systems , wich had a good scliedule , but the interest in the cultural and educational aspects . In general , education was based on the teaching of the jurists the principles of reading and writing and reading the Our an some religiousneanings . The curricula were note limited to specific goals or goals , and science has a clear : policy .

Keywords: Education policy,education, Ottoman period

المؤلف المرسل: وردة برويس، الإيميل: berouis.w@gmail.com

1.المقدمة:

إن الازدهار الحضاري والحياة الثقافة العلمية لأي أمة يرتكز أساسا على تقدم ورقي العلوم والفنون والمتتبع لروافد الثقافة الجزائرية خلال العهد العثماني يجدها ترتكز على الإسلام دينا والعربية لغة لغالبية المجتمع الجزائري، وما يمكن الإشارة إليه أن الثقافة الجزائرية تأثرت في بعض الأحيان بثقافات المجتمعات الدخيلة والوافدة على المجتمع الجزائري في بعض الفترات التاريخية ، ولعل أبرز التكتلات والتركيبات الأثينية التي أثرت في ثقافة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني نذكر الجالية الأندلسية وفئة الكراغلة والأتراك العثمانيين. إلا أن المنظورات أختلفت حول مساهمة الدولة العثمانية في دعم الجانب الثقافي بشكل عام والسياسة التعليمية بشكل خاص.

فهناك بعض المصادر التي تحدثت عن الجانب الثقافي ورسمت لنا صورة سوداوية عن ثقافة الجزائر العثمانية ، حيث يرون أن الانحطاط الذي شهدته الجزائر كان بسبب الأتراك الجهلة، وهنالك من أشار إلى أنها ساهمت بشكل محدود في إنعاش الجانب الثقافي والتعليمي.

2.تحديد المفاهيم:

1.2 تعريف السياسة التعليمية:

مصطلح مشتق من السياسة العامة للدولة ويختلف تناوله حسب توجه الدولة والأمطار الفكري للباحثين، وتعد السياسة التعليمية نوع من الخطط تتحدد في صورة تقارير أو مفاهيم عامة ترشد أو توجه المسؤولين في الوزارة الوصية لاتخاذ القرارات ، بحيث يكون ميدان تطبيق تلك القرارات المدرسة فالمؤسسة كمؤسسة اجتماعية تربوية لها وظائف متعددة منها ما يخدم الأفراد والتلاميذ ومنها ما يخدم المجتمع كمؤسسة اجتماعية تربوية لها وظائف متعددة منها ما يخدم الأفراد والتلاميذ ومنها ما يخدم المجتمع ،ويمكن حصر وظيفة المدرسة في ثلاثة وظائف رئيسية:

- **وظيفة المحافظة:**

ونعني بوظيفة المحافظة ، أن المدرسة تحاول نقل تراث الماضي إلى الجيل بتبسيطه وانتقائه، ولكنها تعتمد على نظام تربوي منفتح على التحديث والتقدم بمعنى أنها تنغلق في الماضي وتتوقع داخله وهذا ما يؤكد عليه السوسيولوجي الفرنسي، "**إيميل**

دوركايم" بقوله: إن المستقبل لا يمكن تناوله من عدم ، إننا لا نستطيع أن نبنيه إلا بواسطة أدوات تركها لنا الماضي و لهذا نجد المقررات المدرسية تظل دائما مع سير و انتاجات السلف و مشاكل إنتاجات الخلف، و لكن بمقادير مختلفة، إن هذه المقادير هي التي تمدد صدارة هذه الوظيفة أو تلك.

- وثيقة الإعلام والتكوين:

إذا كان فعل informer في معناه الشائع يعني أخبر و أعطى معلومات، فإن أصله يدل على أعطى شكلا ، وهذا هو بيت القصيد فالمدرسة لا تقتصر على شحن بالمعومات بل تعطيها معنى و دلالة و شكلا يندرج في بنية تكوين الطفل، إنها تحاول القضاء على الأمية عن طريق تعليم الكتابة و القراءة و التزويد بالمعارف، و في نفس الوقت تقوم بتأسيس العقلانية و الموضوعية، أي تشكيل الفكر العلمي و من ثمة فهي تتراوح بين المعرفة (إعلام) و الفعل (تكوين) للتأثير بعمق على الطفل عبر المعلمين. و هكذا نخلص الى القول عبر هذا الزوج إعلام –تكوين– تتجسد طاقة المدرسة الدينامية و الكامنة في جدلية المعرفة و الفعل.

- وظيفة التطبيع الاجتماعي:

من المعروف أن التربية المدرسية في فعل كل شيء ، تنشئة اجتماعية وتطبيع اجتماعي ، لأنها تمرر الأعراف والقيم الاجتماعية الموضوعة ، ولتحقيق وظيفتها في تكوين الطفل تلجأ المدرسة إلى استعمال مفاهيم عدة ، حسب الظروف والمرافق ، كمفهوم التربية والتعليم ، و التدريس و المستمر، و التوجيه و الاختبار...الخ.

وكلها في الواقع مفاهيم تحيلنا إلى هدف واحد هو التأثير العميق على المتعلم أو الطفل قصد تحقيق توافقه أو تطبيعة الاجتماعي وهي في ذلك تسلك مسلكين:

- المسلك الأول:

يقوم على حماية الطفل من شوائب المجتمع وعيوبه أي من البيئة الخارجية، مما يؤثر في تطبيع التلميذ بطريقة إيجابية ويساعده على تكوين شخصيته تكوينا ينسجم ومستجدات التربية الحديثة حتى يتسنى له التوافق مع مجتمعه بشكل سليم . إلا أن هذا المسلك في الواقع يبدو أنه يجعل من المتعلمين أفراد غرباء عن مجتمعهم ، كما يجعل من المدرسة نفسها بيئة مختلفة و بعيدة عن الحياة الاجتماعية الواقعية بكل تناقضاتها.

– المسلك الثاني:

فيرى فيه علماء الاجتماع إن المدرسة فهي مجرد مسرح لما يجري داخل المجتمع الكبير ، ولذلك يرى بيير بورديو إن المدرسة هي فقط إعادة إنتاج نفس البنيات الاجتماعية التي أنتجها ، فهي تلعب دورا أساسيا يتجلى في تبعيتها وتأثرها بالنظام الاجتماعي والسياسي، و هنا يمكن القول أن الأفراد ليسوا هم المعيار، بل يجب الانطلاق من المجتمع، ولعل هذا ما عبر عنه السوسيولوجي الفرنسيGuy Rocher الذي أكد على دور التنشئة الاجتماعية في صقل هوية الطفل (عبد الرزاق و باللموشي، 27–28 نوفمبر 2018) .

3–لمحة عن مراحل الحكم العثماني في الجزائر:

مر الحكم العثماني في الجزائر بأربعة مراحل اختلفت كل مرحلة عن الأخرى بمميزات وخصائص مختلفة وهي كالتالي:

1.3 مرحلة البايلربايات : (1519 م – 1587 م) :

وتعني مرحلة أمير الأمراء . ويمثل هذا العصر ازهى مراحل الحكم العثماني في الجزائر ، حيث امتلكت الجزائر في هذا العهد قوة بحرية رادعة تمكنت بموجبها من مجابهة جل المشاريع الأوروبية خاصة الإسبانية ، والتصدي لها بكل قوة مما انعكس على المجال الاقتصادي والسياسي وذلك بفضل العلاقة التعاونية بين فئة الرياس في القيادة وأبناء المجتمع الجزائري ، ولعل أبرز مظاهر قوة هاته الفترة تحرير صخرة البنيون من طرف خير الدين بربروس عام 1526 م تحرير بجاية من طرف صالح رايس عام 1555 م ومساهمة الجزائر في تحرير كل من طرابلس الغرب عام 1551 م وتونس عام 1574 م وغيرها من الوقائع التاريخية التي أثبتت فيها الجزائر حضورها المتميز في الساحة الإقليمية والدولية.

3.2 مرحلة الباشوات : 1587 – 1659م:

انتقلت الجزائر العثمانية سنة 1587 م لوضع سياسي جديد شمل جهاز الحكم واستبدل النظام السابق بنظام جديد أطلق عليه عصر الباشوات واصبح هذا النظام الجديد يحكمه الباشا لمدة ثلاث سنوات ، ولهذا انكلب الباشا إلى الاهتمام بجمع الثروة قبل نهاية فترة حكمه ، مما انعكس سلبا على العلاقة بين جنود البحرية والباشوات من ناحية وعلى الوضع العام للبلاد من ناحية أخرى .

3.3 مرحلة الآغاوات : 1659 – 1671 م

تحولت السلطة نهائيا من أيدي لباشوات إلى رؤساء الحامية من الآغاوات بإقرار من الديوان و موافقة الجند و ذلك سنة 1659م، تحت حجة تصرف إبراهيم باشا أثناء فترة توليه الثانية بما يتنافى و العرف المعمول به لدى الحامية، عندما أراد اخذ الزكاة على العطايا التي اعتاد السلطان العثماني إرسالها في شكل مساعدة للأسطول الجزائري.

وهي مرحلة مملوء بالفتن والاغتيالات والمؤامرات ، ومن الأمور ذات الأهمية والدلالة أن طائفة الرياس كانت تشارك بنفسها لإثارة الاضطرابات ضد الآغوات كمحاولة منها لاستعادة السلطة و الحكم منهم، و تعد مرحلة الآغوات أقصر مراحل الحكم العثماني بالجزائر و الواقع أن هذا النظام كان يحمل مند تأسيسه بذور زواله، مما مكن طائفة الرياس من تنظيم انقلاب جديد و تأسيس مرحلة جديدة سميت بمرحلة الدايات.

4.3 مرحلة الدايات: 1671 – 1830م

استفاد حكام الجزائر من تجارب الحكم السابقة وحاولوا ترضية السلطان العثماني وتقوية مركز حكم الدايات وتعيين الداي في منصبه مدى الحياة ، وكان يتم اختيار الداي بواسطة الانتخاب من الديوان العالي –المجلس– الذي عمار بمثابة برلمان ، وكان ينحصر دور السلطان في إرسال فرمان تعيينه ، وقد شكل عصر الديات مرحلة القوة العسكرية و ملامح السيادة الوطنية ، حيث كان الداي يعقد المعاهدات باسم الجزائر ويبعث القناصل إلى الدول الكبرى ، ولعل ابرز دايات الجزائر خلال هذه المرحلة نجد الداي مصطفى باشا والداي عمر والداي علي خوجة والداي حسين.

والجدير بالذكر أنه في نهاية هاته المرحلة أصبح الداني يختار من ضباط الانكشارية مع أعطى للإيالة الجزائرية طابعا حكوميا شبيها بالحكم الجمهوري الحديث.

وصفوة القول أن الجزائر خلال العهد العثماني تمتعت بسيادة وطنية ، وسمعة دولية أهلتها بأن تكون القوة المهيمنة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وأن تتحكم في مجاله الحيوي (شوادر، 2019) .

4.مميزات سياسة التعليم في ظل العهد العثماني:

لقد عرف التعليم في العهد العثماني خصوصية ، فالمتتبع لمساره يلاحظ أن التعليم كان مقتصرا على تعليم المبادئ الأولية للقراءة والكتابة، وهذا ما يفسر الانتشار الواسع للتعليم الإبتدائي هذا ما جعل الكثير من الباحثين والتربويين خاصة يصفونه بالتعليم الأولي . كما عرف انتشارا واسعا للمدارس القرآنية ، مما اعطى للتعليم الصيغة الدينية ، وفي هذا الصدد يقول شمبر : " لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أنني لم أعثر عليه في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب اوربا"

وتجدر الإشارة ايضا إلى ان الاتراك لم يخصصوا مؤسسة بعينها للتربية والتعليم ، كما هو الحال في أيامنا هذه مثلا مديرية التربية، وزارة التربية الوطنية ووزارة التعليم العالي..

كما ان كل مستحقات ومتطلبات التعليم كانت تستند الى الوقف، و كذا تبرعات بعض الأفراد و الجمعيات الخيرية الموجودة آنذاك، لان الدولة العثمانية لم تخصص ميزانية للتربية و التعليم.

وفيما يتعلق بتعليم المرأة فيرى شالر : " أن هناك مدارس للبنات والنساء هن اللواتي يدرن هذه المدارس اما المرأة الريفية فقد كانت أكثر ظهورا من المرأة الحضرية فكالت تتلقي في صباها قواعد الدين والقراءة على يد والدها إذا كان متعلما او على يد مؤدب خاص" اما ابو القاسم سعد الله فيرى العكس حيث يقول أن من مفارقات هذا العهد:"لم يكن للمرأة نصيب في التعليم وكانت غائبة طيلة هذا العهد ... فلا أميرات وسيدات يشاركن في الحياة العامة .... و لا شاعرات أو كاتبات يساهمين في الحياة الثقافية وترقية الذوق الاجتماعي (منصور، 2015، صفحة 66) ،على خلاف ما هو موجود في عصرنا هذا حيث نجد مساهمة المرأة في التربية والتعليم جد موسعة.

كما تميزت العلوم بالتقليد والتكرار والحفظ ، وقد حاول عبد الكريم الفكون صاحب كتاب "منشور الهداية في حال من ادعى العلم و الولاية"، الثورة على الجمود الفكري لأن فقهاء الجزائر خلال القرن الأول من التواجد العثماني نادوا بتقديم الاجتهاد العقلي (الدراية) على التقليد (الرواية) ، فقد كانوا يرددون أقوال المتقدمين ويحفظونها حفظا سطحيا لاعقل فيه ولا تفكير ، ويتظاهرون بالحفظ وقوة الحافظة ، فقد كان أحفظ الناس هو أعلم الناس ، ويوصف أحمد المقري بأنه كان أحفظ أهل زمانه ، ولقب ب (حافظ المغرب الأوسط) فظاهرة الحفظ والتقليد جمدت الإنتاج في العلوم كلها.

وكان ابن العنابي من أوائل الفقهاء الذين دعوا إلى الثورة عن الجمود العقلي وسيطرة التخلف على التعليم واهله ، بل ودعا إلى الأخذ بأسباب الحضارة الغربية ، ذلك أن أوروبا في تلك الفترة كانت تعيش عصر النهضة الصناعية ، كما دعا إلى الحد من نشاط الدراويش الذين اضروا بالمجتمع حسب رأيه ، وهو مؤلف كتاب السعي المحمود في نظام الجنود (تالي، 2016، صفحة 33) وكان له رأي ايضا في الديموقراطية السياسية وتوزيع الثروة واختيار الأكفاء في الإدارة ونحو ذلك مما كان شبه محرم على الفقهاء قبله. وظاهرة التقليد بالإضافة إلى تخلف الثقافة عموما ، كانت محاولة على ندرة الإنتاج في العلوم الشرعية التي تحتاج إلى ثقافة واسعة وعميقة كالتفسير ذلك أن مفسر القرآن الكريم يحتاج إلى ثقافة دينية وتاريخية ولغوية قوية لكي يقدم على عمله،بالإضافة إلى استقلال عقلي كبير ، وهذا ما لم يتوفر للجزائريين خلال العهد العثماني،فمجال الثقافة كان محدودا وميدان استثمارها كان ايضا محدود وإذا توفر جانب من جوانبها المذكورة (الدينية ، التاريخية اللغوية، والاستقلال العقلي) فإن بقية الجوانب لا تتوفر. لذلك قال مفسروا القرآن من الجزائريين ، وضحلت دراسات الحديث باستثناء بعض الفروع كرواية الأسانيد والاثبات ومنح الإجازات فيها، أما الدراسات الفقهية وفقد كانت تقليدية ايضا ولم يستطع أحد من العلماء في العهد العثماني أن يكتب عملا في الفقه شبيها ب (معيار) أحمد الونشريسي ، كما لم يكتب أحد منهم (فيما وصل إلينا) عملا في التفسير يشبه (الجواهر الحسان) للثعالبي،فإنتاج الجزاير إذن من العلوم الشرعية كاد ينحصر في مجالات واهية لتفسير القرآن الكريم ، وبعض العناية بالقراءات، وفي مجموعة من الأثبات والإجازات ، بالإضافة إلى أعمال فقهية تتناول فروعا من العبادات و المعاملات (أبو القاسم، 1998، الصفحات 11-12) .

5.مؤسسات التربية والتعليم في العهد العثماني:

1.5 الكتاتيب:

كانت بمثابة مراكز التعليم التحضيريأو الابتدائي وكان يطلق عليها في الارياف اسم الشريعة و ذلك لتدريسها الشريعة ، أما في المدن فيطلق عليها اسم المسيد ، وتتمثل مهمة الكتاب ، في حفظ القران الكريم وتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب.

2.5 المساجد:

وتمثل النواة الأولى كمؤسسة ثقافية وتعليمية ودينية في آن واحد ، حيث كان المصلون يجتمعون لأداء الصلاة والحضور خطبة الإمام في المركز الاول لإشعاع الروحي والعلمي ، وقد تميزت مدينة الجزائر بكثرة المساجد ، ومن اهمها المساجد نجد الجامع الكبير بالجزائر افخم بناء معماري عتيق ، ثم مسجد كتشاوة ومسجد سيدة ، ومسجد الأندلسين الذي بناه المهاجرون الأندلسيون سنة 1623م. ومسجد علي بتشيني (شريفي و مهدي، 2017، الصفحات 11-12).

والملاحظ أن هذه المساجد كانت مرفوقة بمكتبات للقراء والطلبة والأساتذة، جل كتبها كانت دينية ، إلا أن بعضها كان يحتوي على القليل من كتب العلوم والرياضيات والطب ، مما جعل العهد العالي يتسم بالعلوم القرانية النقلية أكثر من العلوم العقلية.

3.5 المدارس العلمية :

المدارس العلمية مؤسسات ثقافية تتمثل وظيفتها بصورة أساسية في تعليم من العلوم الدينية، وقد عرفها ابو راس الناصري يقوله "المدرسة المتعارف عندنا الان وهي التي تبنى لدراسة العلم أي تعلمه وتعلمه". وحقيقة الأمر أن الجزائر خلال العهد العثماني عرفت انتشار واسع للمدارس، ويذكر البعض ان مدينة الجزائر كانت تتوفر على ثلاث مدارس للمذهب المالكي ، وكان من أهداف المدرسة في ربوع الوطن الجزائري تحفظ القرآن الكريم الى جانب تعليم مبادئ القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى كالحديث والنحو واللغة والفقه والتوحيد واستكمال هذه الدراسات بعلم الحساب وقراءة المؤلفات الطبية.

ومن بين المدارس المشهورة في الجزائر العثمانية نذكر:

1.3.5 مدرسة مازونة:

اشتهرت مدينة مازونة بمدرستها الدينية، بلغت مازونة شهرتها الآفاق في العلوم الشرعية منها الفقهية و علم الحديث و علم الكلام، وقد عرفت بكثرة مجالسها و نجابة طلبتها و قريحة شيوخها، حتى وصفت بكونها بلد العلم و الفقه، و اشتهر شيوخها بالتخصص فبعضهم تخصص في شرح مختصر خليل وشرح الخرشي و شرح الزرقاني في الفقه المالكي، و البعض في الأحكام و القضاء و الفتوى، و البعض الآخر في الفرائض و آخرون في رواية الحديث الشريف.

2.3.5 مدرسة القيطنة:

تأسست هذه المدرسة بالقرب من مدينة حنيفية سنة 1787 م على يد مصطفى بن المختار بعد عودته من بغداد عاصمة العلم آنذاك، و تعتبر هذه المدرسة من المدارس التعليمية الهامة في الجزائر ، حيث جمعت مدرسة القيطنة بين جميع مراحل التعليم من أدنى مرحلة الى اعلاها، ومن العلماء الذين درسوا بها أبي راس الناصري.

3.3.5 مدرسة المحمدية:

وهي من أهم المدارس التي أسسها محمد باي ، والتي كان لها صدى واسع في العالم العربي والإسلامي عموما والناحية الغربية على وجه الخصوص ، والتي تعتبر أكبر معهد علمي يضم أساتذة أكفاء ، وهي التي أشار إليها أبو راس الناصري بقوله "...المدرسة التي كاد العلم أن ينفجر من جوانبها.

4.5 المكتبات:

كانت المكتبات منتشرة في الجزائر وكانت في معظمها تضم كتب دينية وكانت على شكل مخطوطات ، وقد شهد على وفرتها الفرسيين، حتى أنهم حكموا على العثمانيين بأنهم لم يقدموا أي عمل لتنشيط الحياة الفكرية في الجزائر ، كانت الكتب تنتج محليا أو تنسخ كما تجلب من الخارج خاصة الأندلس ومصر.

و مثلما إشتهرت مدن قسنطينة و تلمسان و بجاية و مازونة و العاصمة بكثرة مركزها الثقافية فقد إشتهرت أيضا بمكتباتها، وفرة الكتب تدل على اهتمام الجزائريين بالعلم فالكثير من العائلات تمتلك مكتبات خاصة بها تضاهي أحيانا المكتبات العامة، كما نقل العثمانيون كذلك بعض الكتب معهم من تركيا و إن كانت في معضمها كتب الفقه الحنفي (بخوش، دس، صفحة 146).

مع سيادة العلوم الدينية في العهد العثماني، كان محتوى المكتبات لا يخرج من الأحاديث الدينية وكذا الفقه والأصول والتوحيد والعلوم اللغوية والعقلية وحتى الأدب والنحو أما التاريخ و الجغرافيا والفلسفة فكانت قليلة وكان الطب والفلك أقل منها وما يقال عن المكتبات الأخرى يقال عن المكتبات الريفية ، حيث كان لها أهمية في أنحاء البلاد كمكتبة بني ميزاب في بني يزقن بحيث حافظ عليها أصحابها كعائلة التميمي وأطفيش و مكتبات زوارة وورقله وهذا كله يدل على وفرة الكتب في الجزائر حتى في المناطق النائية حيث كان

للعلماء في بيوتهم صناديق وخزانات خاصة يحتفظون فيها بالكتب والمخطوطات، ومن أهم خزائن المخطوطات تشكلت بالجنوب الجزائري وخصوصا بتوات نذكر:

1.4.5 الخزانة البكرية:

بتمنطيط من أقدم و أغنى المكتبات الموجودة بالمنطقة، مؤسسها الشيخ ميمون بنعمر وذلك في أواخر القرن 9هـ، بلغ عدد مخطوطاتها في القرن 11 هـ ثلاثة آلاف مخطوطا.

2.4.5 الرباطات:

و هي مواقع يربط فيها المجاهدون للدفاع عن الحدود لهذا فهي متواجدة على الحدود إلا أن لها وظيفة ثانية و هي التعليم و مساعدة عابري السبيل و بهذا فهي تشبه نوعا ما الزوايا إذ تخدم الدين و المجتمع لكن تختلف عنها في كونها قريبة من مواقع الأعداد و أن هدفها الأول الجهاد فطلبتها كانوا جنودا في نفس الوقت و ميزتها أنها لم تكن خاضعة لأي طريقة صوفية بل كانت منفتحة على كل التعاليم الصوفية وجل مؤسسيها أو المشرفين عليها من رجال الدين (بخوش، دس، صفحة 147).

5.5 الزوايا:

الزاوية هي مؤسسة دينية إسلامية ذات طابع اجتماعي تتمثل في مجمعات من البيوت و المنازل مختلفة الأحجام و الأشكال، تظم بيوت للصلاة و غرف لتحفيظ القرآن احتلت الصدارة بين مراكز الثقافة و التعليم خاصة بالأرياف، حيث مثلت المسجد و المدرسة في آن واحد، وهي تقوم بتعليم القرآن الكريم إضافة للفقه و العقائد و قواعد النحو و الصرف و البلاغة و الحديث، ويقوم بتأسيس هذه الزوايا في الغالب رجال الدين المتصوفة الذين يرون أن بناءها يتمثل عملا خيريا لنشر الثقافة الإسلامية و المحافظة عليها.

تعتبر الزوايا من أهم مميزات العصر العثماني بالجزائر، فكانت كل مدينة كبيرة أو صغيرة إلا ولها زاوية، و كان من بين أهدافها و مقاصدها تعليم و تثقيف الطبقة العامة المعوزة من أبناء المجتمع المتعطش و المحتاج إلى ينابيع العلم و المعرفة، وقد أشادت بعض الدراسات التاريخية بالعدد الهائل للزوايا في الجزائر العثمانية، حيث يذكر المؤرخين المهتمون بهذا الشأن بأن زوايا بلاد القبائل كان عددها لا يقل عن أربعين زاوية في طليعتها زوايا سيدي عبد الرحمان اليلولي و سيدي محمد بوقبرين و سيدي علي بن الشريف و سيدي

احمد بن ادريس وغيرها، هذا بالإضافة الى زوايا الصحراء (بوسعادة و الهامل و سيدي خالد و بسكرة و سيدي عقبة و طولقة و عين ماضي و زوايا ناحية وهران)...

و الواقع أن الزوايا في الجزائر كانت لها مساهمة فعالة و دور ريادي في بناء الشخصية الوطنية الجزائرية و إبراز ثوابتها و مقدساتها، وفي هذا الشأن تقر بعض الدراسات على أن الزاوية هي التي حفظت لهذه الأمة المسلمة قرآنها و لغتها ودينها و أخلاقها الإسلامية أمام المشاريع الإستدمارية الهادفة إلى طمس مقومات الهوية الوطنية، هذا إلى جانب دورها الجهادي إذ ما من ثورة أو انتفاضة أو مقاومة خلال القرن التاسع عشر الميلادي إلا وهو مقرون باسم شيخ زاوية.

ويشهد التاريخ النزيه أن شيوخ الزوايا وابناءهم ومريديهم كانوا أسرع من غيرهم مبادرة لجهاد العدو الإسباني والفرنسي فيما بعد ، والجدير بالذكر أن الزوايا في الجزائر قد نجحت في هذه المرحلة من التنظير للبعد الوطني وقيمه في الأوساط الجماهيرية ، ومن جهة أخرى تمكنت من تربية روحية استندت التصوف الإسلامي ومقاصده النبيلة (شوادر، 2019)

6.سياسة التعليم في العهد العثماني:

لقد كانت هموم الدولة وقتئذ منحصرة في المحافظة على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب لبيت المال، ولم تكن هذه الأموال وغيرها تستعمل في نشر التعليم وترقيته وتنمية الثقافة وتنشيطها او تطوير المجتمع اقتصاديا او الى تربية الشعب سياسيا، وإذا فعلت شيئا من ذلك عن طريق الدين .

و لو جاز لنا الاستلقاء في العهد العثماني لوجدنا بعض الإسهامات لمحمد الكبير وصالح باي، من خلال تشجيعهم العلماء وبناء المساجد والزوايا لكن هذه المحاولات فردية ولا تقوم على خطة مدروسة و لا تخرج عن تبعية التعليم للدين، وهو تلبية الشعور الديني لا الشعور العلمي لديهما كما تهدف لكسب رضا الناس والشهرة والمدح والثناء.

فالتعليم كان ينبع من حاجة المجتمع الجزائري لتربية أبنائه، لذلك اعتمد على جهود الأفراد والعائلات والمؤسسات الخيرية، و يدخل في هذا العموم رجال الدولة كأفراد يسهرون على تعليم أطفالهم، إما، امتثالا لحث الدين على التعليم ، و إما لأن التعليم في سن معينة لا يحتاجهم أهلهم في العمل ، وإما لان التعليم والقضاء والإفتاء وما إليها من مهن كانت

وراثية في الأسر. أو لان بعض المهن تحتاج لنوع من التعليم كالتجارة التي تقتضي معرفة الحساب.

كما ينطلق التعليم من تقاليد الجزائريين الراسخة والتي تعود إلى عصر من الحضارة وازدهار العلوم والفنون أيام الدويلات الإسلامية التي ظهرت بها، وأنتجت من العلماء والمؤلفات الكثير، فهي تقاليد تحترم الإنسان المتعلم وتعز و تجل العلماء وتقدس العلم وتحث عليه وتوفر له أسباب النجاح والظروف اللائقة به.

ويمكن أن نقر مع أبو القاسم سعد الله أن مسألة الاهتمام بالتعليم من قبل العثمانيين كانت غائبة كون اغلب العثمانيين خاصة جنود الانكشارية وبعض رجال الدولة كانوا عزابا . وفي جملتهم من دون أطفال فلم يتحمسوا لقضية التعليم كما أن اغلبهم حديثي العهد بالإسلام ناهيك عن سوء الأوضاع السياسية والمواجهات العسكرية ضد المسيحيين الأسبان مهما ذكرنا من إهمال العثمانيين للتعليم وسوء الأوضاع الاقتصادية و السياسية ، إلا أن الأسر الجزائرية لم تفرط في التعليم و تحملت أعباءه، فرغم الفقر كانوا حريصين على تعليم وتحفيظ أبنائهم للقرآن، الذي كان أساس التعليم و الدين.

وإذا ما نظرنا إلى آراء بعض الرحالة المسلمين والكتاب الأوروبيين فان أحوال التعليم كانت سيئة و غير سارة ، فرغم الأعمال كان العثمانيون يستولون على الأموال التي يقدمها أهل الخير للمؤسسات التعليمية.

وفي أوائل القرن التاسع عشر شكا أبو راسمن سوء أحوال التعليم وأهله في العهد العثماني رغم أنه كان يعيش في عصر الباي محمد الكبير بوهران قائلا: " في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده و سدت مصادره و موارده و خلت ديار هو مراسمه وعفت أطلال هو معالمه". (تالي، 2016، الصفحات 32-33) .

ولم تكن هذه الصورة تتغير عندما نتأمل حال التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني لدى الجزائريين انفسهم ذلك أن كثيرا من المصادر تتحدث عن استعداد الشعب للتعلم وحبه للعلم واحترام المعلم وتشهد كتابات فانتور ديبا ردي و تقارير الفرنسيين أنفسهم غداة الاحتلال الفرنسي للجزائر، والتي تشهد على أن أعداد المتعلمين في الجزائر يفوق أعداد المتعلمين في فرنسا.

ولم تكن مهنة التعليم من المهن المرغوب فيها أو المربحة فقد كانت مهنة تجلب لصاحبها الفقر برغم ما تجلبه من عطف الناس وتضامنهم والاحترام للمؤدب ، لكن إذا ما تعلق الأمر بالتعليم العالي والثانوي فيختلف الأمر فقد كان المعلم من المحظوظين ، ولكي يصل إلى هذا المنصب فعليه أن يصارع خصومه من أهل مهنته ومن أهم العقبات هي رضا الباشا أو الباي فالمؤدب كانت شروط تأهيله يسيطة أما المعلم والمدرسة كانت كثيرة.

أما بالنسبة للعلماء فكانوا يقوموا بهجرة داخلية في الجزائر حيث ينتقل بعضهم من مدينة لأخرى طلبا للعلم أو الوظيفة كما كانت لهم هجرة خارجية إما لطلب العلم أو مجاورة بيت الله الحرام ، أو هروبا من الأوضاع السيئة والتي تعود إلى تعفن الأوضاع السياسية وسطوة العثمانيين على المجتمع الجزائري وكثرة الفساد الإداري والاقتصادي ، كما كان هناك علماء من مختلف اقطار العالم الإسلامي في الجزائر.

7. دور السلطة العثمانية في دعم الحراك التعليمي:

يكشف لنا تتبع سير العلماء الذين شاركوا في تأسيس دولة العثمانيين جملة من المعطيات الهامة تسمح بتعيين مرتكزات العلاقة الناشئة بين جمهرة العلماء والسلطة الأخذة في التكوين و الترسخ فهم في غالبيتهم علماء عارفون توصلوا إلى تبؤ مكانه خاصة داخل تكوينات دورة الاجتماع الاسلامي بعد أن اجتازوا مسالك معقدة تداخلت في تشكيل مبانيها تجارب معرفية واخرى علمية ترتبط ارتباطا وثيقا بشتى القضايا التي فرضتها سياقات تفسخ و انهيار الدولة السلجقية.

وبداية تفيد سيادة نموذج الفقيه العارف في سير غالبية العلماء الذين ساهموا في إرساء دعائم الدولة العثمانية، إلا أننا لسنا بصدد وقائع انفرادية منعزلة بل نحن أمام ظاهرة عامة استطاعت عبر مخاض تاريخي طويل أن تفرض نفسها عنوانا كاشفا لما طورته ديناميات الاجتماع الإسلامي من تيارات فكرية متجددة. هذه التيارات التي استطاعت ان تتخطى جوانب أساسية من أزمة الفقيه المنخرط ضمن منار السلطة السلجوقية، والذي غدا بعد الغزو المغولي أثرا تاريخيا مهمشا.

و بهذا المعنى شارك العالم العارف في نشأة الدولة العثمانية بما و تعبير عن ائتلاف وتوحد تيارات فكرية واجتماعية وسياسية لها مرتكزاتها الثابتة المتمثلة بشتى المؤسسات العلمية (المدارس) والتعبدية (المساجد و والزوايا) والاجتماعية (طوائف الحرف والمهن)

والسياسية (الطرق، الأحيان ، جمهرة المرابطين والمجاهدين) هذه المؤسسات التي تشكل نسيج دورة الاجتماع الإسلامي هي التي وفرت مكانة خاصة للعالم العارف تتيح له المشاركة الفاعلة في رسم معالم توازناتها و آفاق حراكها سواء منها المستصل بأهداف ومقاصد . فرعيه أو المنفتح على قضايا المدار الاجتماعي العام التي تتوزع بين محاور عديدة منها محور الدعوة و حور الجهاد بتعبيراته الداخلية أو الخارجية و محور التشريع والقضاء. . . (الضيفة، 1997، الصفحات 103-104).

و كان العلماء يمثلون الرأي العام في الجزائر خلال العهد العثماني، فرغم ترفعهم الطبقي كانوا على صلة بالناس في الدروس ومجالس الفتوى والقضاء والزوايا وخطب الجمعة ونحو ذلك، وكان الناس يثقون في العلماء أكثر مما يثقون في رجال السياسة ، ولهذه المكانة التي كانت العلماء كان العثمانيون يقدرونهم ويخشونهم ويتقربون منهم ويمنحونهم الهدايا،وكانوا أحيانا يلجؤون إليهم في موقف تأييد وغير ذلك ، كما أن العلماء كانوا في حاجة إلى الباشاوات و البايات طمعا في مال أو وظيفة ، وكانت هذه العلاقة في الواقع علاقة مطردة فإذا وقعن فور من إحدى الطرفين أو معاملة غير جيدة فذلك يعود إلى تصرف الأفراد في فترة معينة وليس العلاقة في حد ذاتها.

و من هذا المنطلق يمكننا أن نذكر بان سياسة الحكام الأتراك في الفترة الأولى التي استغرقت كل القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر الميلاديين تميزت بعدم التدخل في شؤون السكان الداخلية والاكتفاء بالتعامل مع شيوخهم و مرابطهم الذين كانوا يقدمون نيابة عن السكان ما كان يفرضها لبايلك من مطالب مخزنية وضرائب متنوعة مقابل تمتعهم بتأييد الحكام ونيلهم العطايا لهذا كانت علاقة العلماء بالسلطة العثمانية حسنة، فمعظمهم كان يؤيد الحكم العثماني ويعتبرونه نظام شرعيا لا يجوز الخروج عليه.

و كنماذج عن تأييد العلماء للوجود العثماني نكر منهم: محمد بن علي الخروبي،عيسي الثعالبي، الذي كان من المناصرين للحكم العثماني بالجزائر والباشوات خصوصا فقد كان المستشار والكاتب الخاص ليوسف باشا وكذلك يحي الشاوي الذي كان من أكبر المقربين والداعمين للبشوات ولقد كانت هذه العلاقة تقوم على حدود في رفض الحكام العثماني يتدخل اهل العلم والدين في امورهم السياسة بالمقابل لا يتدخل الحكام في الشؤون الدينية لأهل العلم والدين ، غير أن هذه الحدود غالبا ما كانت تخترق ، و يذكر ابن

المفتي ان مكانة العلماء كانت معتبرة لدى الحكام الأتراك ولكنها تراجعت و سبب ذلك هو سلوك المفتي الحنفي محمد النيار، الذى ادخل عادة تقبيل ايدي الحكام بعد ان كان العكس.

و قد وقف بعض العلماء مواقف سياسية معادية من بعض الولاة، فكان نصيبهم الإعدام مثلما حدث للمفتي أحمد قدورة معال باشا محمد بكداش، كما لاحظ المازري نقلا عن عبد القادر مسلم إن الأتراك لما تمهد ملكهم بالجزائر كثر ظلمهم و فسادهم، و أخذ العلماء يستنكرون عليهم سلوكهم هذا، و يهجونهم منهم سعيد بن عبد الله المنداسي.

وقد أشار صاحب (كعبة الطائفين)، أن معظم المرابطين في تلمسان و ضواحيها كانوا ضد الأتراك منهم شيخهم موسى ملاتي، و كان الكثير من الجزائريين يرفضون الوجود العثماني، حيث اصدر فتوى ترفضهم كصدور فتوى من يقتل أحد الأتراك: "مرابط و هو سلطان بني جلاب في تقرت و قاضيها الذي أفتى بوجوب محاربة العثمانيين محتواها كما أشار ابن الفكون في (منشور الهداية) وصف"، سوف ينال رضا من الله، وهو في مرتبة من قتل ملحدا أو كافرا العثمانيين بالعجم كما أعلن سعيد المنداسي معارضته للأتراك خاصة بعد حملة حسن باشا و ما شاهده حسب قوله من تنكيل لاعيان تلمسان على يد الجنود الأتراك،وقد اتخذ المنداسي من الشعر السياسي سلاحه ضد الاتراك (شريفي و مهدي، 2017، الصفحات 33-34) .

ونظيف عنصر متعلق بهجرة العلماء منذ التحاق الجزائر بالدولة العثمانية فقد توصل حميدات آيت حبوش في مقاله حول واقع المجتمع الجزائري في العهد العثماني حيث توصل إلى انه منذ التحاق الجزائر بالدولة العثمانية أدى إلى هجرة عدد كبير من العلماء مما تسبب في ركود ثقافي، و بالرغم من قلة الإمكانيات المادية و البشرية وعدم اهتمام الدولة بالجانب الثقافي فإن بعض المؤسسات الثقافية و الزوايا و المساجد و المدارس ضمنت القدر الأدنى من التعليم و التكوين (آيت حبوش، 2019، صفحة 5) .

من خلال ما سبق نستخلص ما يلي:

-السياسة التعليمية المنهجية كانت بمثابة محو للامية في مجملها، لانها انصبت على تعليم الجزائريين الكتابة و القراءة و القران الكريم وبعض المواد الأخرى.

- إن حركة التأليف كانت نشطة انصب اهتمامها على العلوم الدينية و الشرعية.
- امتاز العهد العثماني بالانتشار الواسع للمكتبات كون هذا من نتاج التأليف.

–اشتهر العديد من المدرسين في الجزائر اثناء العهد العثماني الذين ساهموا في تخريج نخبة من العلماء كان لهم دور كبير في انتشار التعليم.

- تلعب الوقف وبعض الرجال الخيرين دورا مهما في تمويل التعليم آنذاك.

8.خاتمة:

وصفوة القول أن السياسة التعليمية في الجزائر في العهد العثماني لم يخطط لها، من طرف السلطة العثمانية التي كان كل همها حماية الوطن من خلال دعم الأمن و الاستقرار السياسي ومحاربة المخاطر الخارجية.فالتعليم كان في مجمله تعليما أوليا مستندا إلى تعليم الجزائريين القراءة والكتابة وقراءة القران، لذلك يعتبر تعليما فقيرا من حيث الإنتاج الثقافي والاهتمام بالعلوم والفنون، حيث تفرغ العلماء للعلوم الشرعية والآداب والتواريخ المحلية والسير، ولكن عنايتهم بتدوين الطب والحساب والفلك والعمارة والموسيقى قليلة، وما كان شائعا من علوم فنون لا يخرج عن التقليد ولم يكن ممارسره يتمتعون بالاستقلالية في الفكر والعقل وروح الإبداع.

9. قائمة المراجع:

- المؤلفات:

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500– 1830، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998؛
- جمال تالي، محاضرات في تاريخ التربية، مطبوعة موجهة لطلبة السنة الثانية علم اجتماع التربية، قسم علم الاجتماع، الجزائر، جامعة جيجل، الجزائر، 2015/2016؛
- حسن الضيفة، الدولة العثمانية –الثقافة–المجتمع– السلطة، دار المنتخب العربي، بيروت، 1997؛

- الأطروحات:

- لبنى مهدي، صباح شريفي، الحركة التعليمية في الجزائر العثمانية، قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2016/2017؛

- منصور رقاوي، الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين 19-16م بين التاثير و التاثر، مذكرة ماجستير، تخصص تاريخ الحديث و المعاصر، جامعة وهران، الجزائر، 2014/2015؛

- المقالات:

- حميدات آيت حبوش، واقع المجتمع الجزائري في العهد العثماني، texte ecosphere documentation economique et sociale centre de pdf .www.cdesoran.org. n31؛

- المداخلات:

- احمد عبد الرزاق، باللموشي جلول، السياسة التعليمية ودورها في الحفاظ على هوية الشباب الجزائري، إشكالية الهوية بين التأويل الأيديولوجي و الفهم، جامعة حمة لخضر الوادي، 28-27، نوفمبر، 2018؛

- بخوش صبيحة، وضعية التعليم في الجزائر في العهد العثماني. (PDF).

- مواقع الانترنيت:

- مبارك شوادر، التراث التاريخي في العهد العثماني، نقلا عن الموقع:

http//www.crsic.dz 2019 22جويلية